مجلة كليّة

الدعوة الإسلامية

مجلّة إسلاميّة - ثقافيّة - جامعة - محكمة - تصدر سنويًا

العدد
السادس عشر
1999

1429 من ميلاد الرسول صلى الله عليه وسلم 1999 إفرنجي

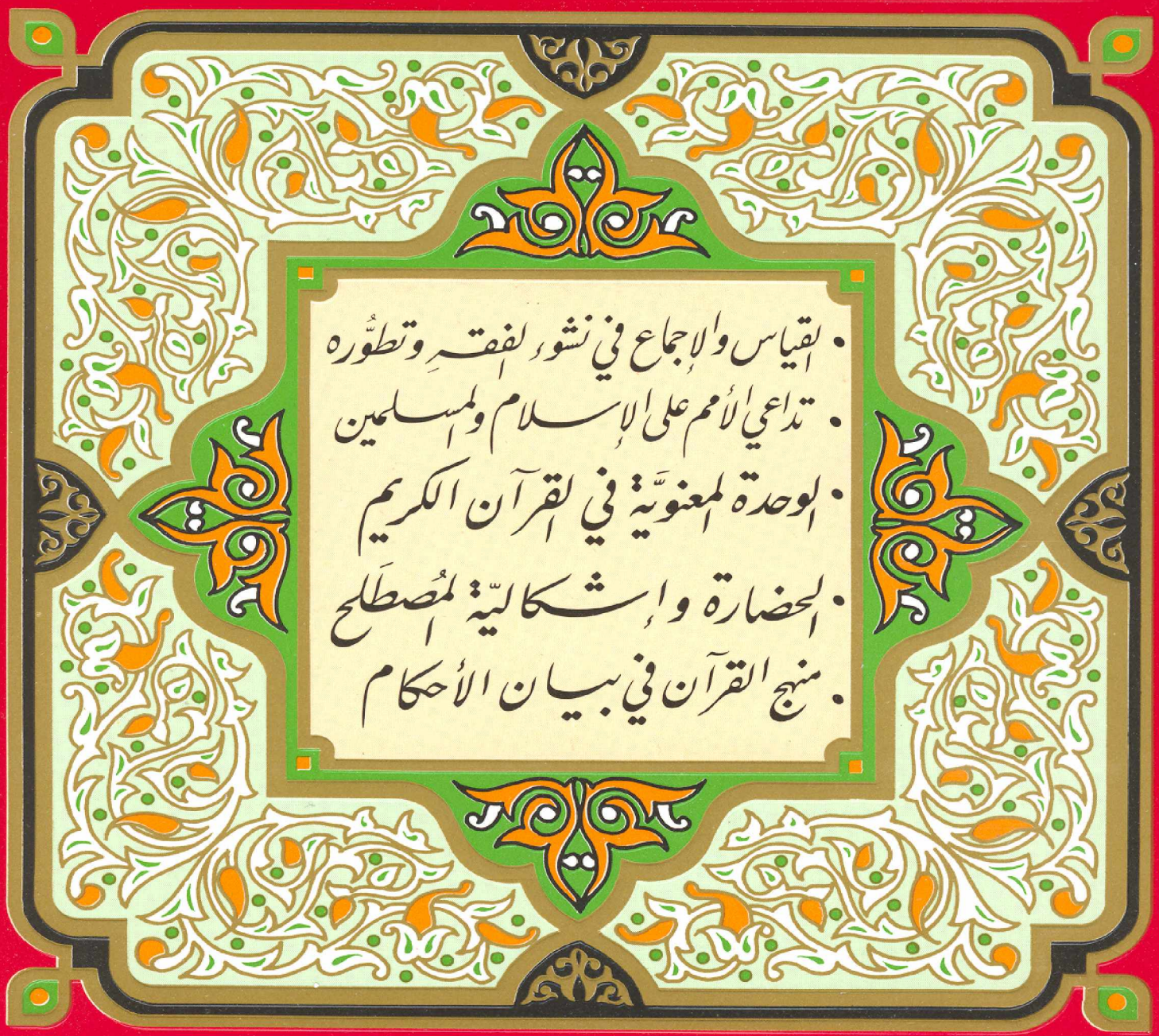

بعض المآخذ على كتاب السيرة النبوية لمحمد بن إسحاق

د. كريمة عمر عبّود

جامعة الفاتح - كلية الآداب والتربية

تمهيد:

إن صحبة الرسول ﷺ، والشغف بأخباره، جعلت الكثيرين يعكفون على دراسة سيرته ﷺ، وسماع أخباره، وأحاديثه العطرة.

إن سيرته ﷺ، تشعرنا بحلاوة الإيمان، لما فيها من القدوة الحسنة، الشاملة لكل نواحي الحياة الإنسانية، وأيضاً فدراسة سيرته ﷺ تغذي وجداننا، وأرواحنا التي عاقتها قوانين الحياة المادية، عن الوصول إلى كمالها الروحي، فدراسة سيرته ﷺ، تمكننا من الانفلات من قيود المادة، والسيطرة على النفس، وتسخيرها في نواحي الخير، التي تعود على المجتمع الإنساني بالسعادة الوارفة

الظلال، فمن خلال دراسة سيرته ﷺ نتعرف صفحات حياته الرائعة، فهو نور يستضاء به إلى يوم القيامة، ونبراس يستنار بأشعته في شعاب الحياة الملتوية، فتنكشف به الظلمات المتراكمة. . .

ولهذا فإن من أراد الكتابة في سيرته ﷺ، يجب أن يختار العبارات المناسبة التي تليق بمقام النبوة، فقد شوه المستشرقون وأعوانهم الكثير من الحقائق التاريخية، وفي مقدمتها، ما يتصل بتاريخ الرسول ﷺ، فمنهم الحاقد في صراحة، ومنهم الحاقد في الخفاء، فظهرت الكثير من الأخبار المدسوسة والحقائق المشوهة المقلوبة، ولقد لمست ذلك في بعض الكتب التي تتناول سيرته ﷺ.

فمثلاً، من خلال دراستي، لسيرة محمد بن إسحاق وجدتُ بعض المآخذ التي سأتطرق إليها لاحقاً، ولكن في البداية، لا بد أن نسلّم، بأن كل إنسان مهما بلغت درجته في العلم والمعرفة، فلا يمكن أن يسلم من الزلل والأخطاء.

وقد قال العلماء قديماً كلمتهم المشهورة التي بقيت قاعدة ذهبية على مر الزمان وهي: كلنا رادٌّ ومردود عليه إلا صاحب هذا القبر عليه الصلاة والسلام، وإذا وجدنا لأحد العلماء بعض الهفوات، فإن ذلك لا ينقص من قدره، ولا يحط من رفعة شأنه، فإن لكل عالم هفوة، ولكل جواد كبوة، وطوبى لمن أُحصيت هفواته، بشرط ألاّ يكون متعمداً الدس وقلب الحقائق.

وبعد هذا، فإن محمد بن إسحاق عالم جليل من علماء المسلمين الأوائل في كتابه السيرة النبوية، عاش ما بين نهاية القرن الأول، ومنتصف القرن الثاني (85هـ إلى 150هـ)، وقد كرس وقته وجهده لجمع السيرة، والكتابة فيها بما تيسر له في ذلك الوقت المبارك، ولهذا فإنه لا يغض من شأنه بعض المآخذ الموجودة في كتابه، وإن كانت، وهذا هو الظن به قد دُسّت عليه كما هو الشأن في أغلب كتابات السابقين، حيث كانت سبل الوضع والتزييف متيسرة سهلة، لهذا يجب على العلماء والباحثين في هذا الزمان التدقيق الجيد فيما يوجد في بعض الكتب، التي قد تكون تعرضت للدس، ومقارنتها بالأسانيد الصحيحة،

والروايات المقبولة عند علماء الأمة، وترد الشاذ والغريب منها، خاصة ما خالف نصاً مجمعاً عليه، أو أصلاً من أصول الدين.

أما كتاب ابن إسحاق الذي سوف أتناول بعض مآخذه بالدراسة والتعليق، فهو كتابه المبتدأ والمبعث والمغازي، ولقد نشر هذا الكتاب مرتين، مرة في المغرب بتحقيق محمد حميد الله، وتقديم محمد الفاسي ط1976، ومرة في المشرق بتحقيق د. سهيل زكار ط1978.

والكتاب الذي أتناوله بتحقيق محمد حميد الله رواية يونس بن بكير.

والآن، أبدأ في عرض المآخذ أو بعض المآخذ، وسوف أحاول الرد عليها من الكتب المعتمدة في السيرة والسنة والتفسير، وأرجو من الله التوفيق والإعانة، إنه سميع مجيب.

1 ـ الخبر الأول في موضوع زواجه ﷺ بزينب بنت جحش بعد أن طلقها زيد بن حارثة

يقول: حدثنا يونس بن بكير عن أبي سلمة الهمداني مولى الشعبي عن الشعبي قال: مرض[1] زيد بن حارثة، فذهب إليه رسول ﷺ يعوده وزينب بنت جحش جالسة عند رأس زوجها زيد، فقامت لبعض شأنها، فنظر إليها الرسول ﷺ ثم طأطأ رأسه فقال: «**سبحان مقلب القلوب والأبصار**»، فقال زيد: أطلقها لك يا رسول الله فقال: لا. فأنزل الله عز وجل ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ . . .﴾ الآية[2].

وبالرجوع إلى كتب السيرة والسنة والتفسير اتضح وتبين أن هذا الخبر غير صحيح، بل هو خطأ شنيع، وتفسير خاطىء للآية، فالتفسير الصحيح للآية الكريمة حسبما ورد في مصادر التفسير، والسيرة؛ هو أن زواجه ﷺ بزينب ابنة عمته كان لمعالجة قضية التبني التي كانت سائدة، ومتحكمة في الجاهلية

(1) سيرة ابن إسحاق 244.

(2) سورة الأحزاب، الآية: 37.

والرسول ﷺ تبنى زيد بن حارثة[3]، بعد أن اختار البقاء مع الرسول ﷺ على حريته وقومه، فعند ذلك أعلن الرسول ﷺ على الملأ أن زيداً ابنه، فأصبح يدعى زيد بن محمد.

ثم نزل القرآن يأمر بدعوة المتبنى لأبيه الحقيقي في قوله تعالى: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ﴾ فأصبح يدعى زيد بن حارثة، ثم خطب له الرسول ﷺ زينب بنت جحش، ابنة عمة الرسول ﷺ، وحدث صراع نفسي داخل أسرة زينب، كيف تتزوج حفيدة عبد المطلب من زيد المولى، ولكن كيف ترد خطبة النبي ﷺ، وكيف لا يخضع المسلمون لتعاليم الإسلام، التي جعلت الناس سواسية، وأن الكفاءة لا تعتبر في الأحساب، وإنما تعتبر في الأديان.

ولكن زينت وأخاها عبد الله، حاولا الامتناع ورفض ذلك الزواج، لأن زينب أرفع شأناً من زيد، فهي الهاشمية الحرة ابنة عمة الرسول ﷺ، وزيد مولى من الموالي وإن كان متبنى للرسول ﷺ.

ولكن الله أراد أن يكون الدين والتقوى والأخلاق أساس تكوين الأسر، لا الحسب والنسب، فأنزل قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾[4].

وتمّ زواج زينب بزيد، ولكن الحياة لم تستقم بينهما، وجاء زيدٌ، مرة بعد مرة، يشكو إلى الرسول ﷺ اضطراب حياته مع زينب؛ وعدم استطاعته المضي معها، والرسول ﷺ يحس ثقل التبعة فيما ألهمه الله من أمر زينب؛ ويتردد في مواجهة القوم بتحطيم ذلك التقليد العميق فيقول لزيد في قوله تعالى: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾. ويؤخر بهذا مواجهة الأمر العظيم، الذي يتردد في

---

(3) نجد قصة زيد في كثير من كتب السيرة والتفسير، ومنها القرطبي حيث يقول: كان زيد مسبياً من الشام سبته خيل في تهامة، فابتاعه حكيم بن حزام بن خويلد، فوهبه لعمته خديجة، فوهبته خديجة للنبي ﷺ، فاعتقه وتبناه، ثم جاء عمه وأبوه يرغبان في فدائه فقال لهما الرسول ﷺ: خيراه فإن اختاركما فهو لكما دون فداء فاختار الرسول ﷺ، فقال الرسول ﷺ: يا معشر قريش اشهدوا أنه ابني يرثني وأرثه، فرضي بذلك عمه وأبوه وانصرفا» [الجامع لأحكام القرآن جـ14: 188، دار إحياء التراث العربي بيروت].

(4) سورة الأحزاب، الآية: 36.

الخروج به على الناس، كما قال تعالى: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ. . .﴾[5].

وهذا الذي أخفاه النبي ﷺ في نفسه، وهو يعلم أن الله مبديه، هو ما ألهمه الله أنه سيفعله من الزواج بزوجة المتبنى بعد أن يطلقها، ويقول ابن العربي[6]، الخشية ليست حرصاً منه على ذاته أن تنالها بعض الألسنة ـ وأين هذا مما لاقاه في سبيل نشر الدعوة الإسلامية وإعلاء كلمة الله ـ إنما كانت خشيته على بعض المسملين أن يصيبهم غضب الله لو اعترضوا على زواج النبي ﷺ بامرأة دعيه، فكانت الخشية لله. ما أجمل هذا التفسير الرفيع الذي يليق بمقام النبوة!

واستمر اضطراب الحياة بين زيد وزينب، حتى طلقها في النهاية، وهو لا يفكر، لا هو ولا زينب، فيما سيكون بعد، لأن العرف السائد كان يعد زينب مطلقة ابن لمحمد ﷺ لا تحل له حتى بعد إبطال عادة التبني في ذاتها، ولم يكن قد نزل بعدُ إحلال مطلقات الأدعياء، إنما كان حادث زواج النبي ﷺ بها فيما بعد هو الذي قرر هذه القاعدة، بعدما قوبل هذا الأمر بالدهشة والاستنكار، خاصة ألسنة المنافقين التي انطلقت تقول: تزوج حليلة ابنه! وهذا يدل على أن زيداً لم يطلق زينب من أجل الرسول ﷺ كما يزعم ويدعي مرضى النفوس، ولكنه طلقها لأن الحياة لم تستقم بينهما.

ثم كان أمر الله في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾[7]، وكانت هذه إحدى ضرائب الرسالة الباهظة حملها الرسول ﷺ فيما حمل، وواجه بها المجتمع كما أمر الله سبحانه وتعالى.

ولما كانت المسألة مسألة تشريع مبدأ جديد، فقد مضى القرآن يؤكدها،

---

(5) سورة الأحزاب، الآية: 37.

(6) تفسير ابن العربي، جـ3: 133، ونجد المعنى نفسه من لطائف الإشارات للكشيري جـ5: 163 ط1970.

(7) سورة الأحزاب آية: 37.

ويزيل عنصر الغرابة فيها ﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ﴾ حيث فرض له أن يتزوج زينب، وأن يبطل عادة العرب في تحريم أزواج الأدعياء[8]. ثم يأتي القول الفصل في هذه المسألة في قوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾، فهو الذي يعلم ما يصلح لهذه البشرية وما يصلحها، وهو الذي فرض، على النبي ﷺ ما فرض واختار له ما اختار.

والخلاصة، أن الله أراد أن يربي النفوس على الشعور بالمساواة، فأمر بزواج زينب من زيد ليحطم فوارق الطبقات الموروثة ويحقق معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾، ويشرع هذه القيمة الإسلامية الجديدة بفعل عملي واقعي، فتتزوج زينب حفيدة عبد المطلب وسليلة بيت من أشرف بيوتات العرب، من زيد المولى، ويظن الناس أنها انخفضت درجة بهذا الزواج، فلم تعد صالحة ليتزوجها قرشي، ولكن ـ بأمر من الله سبحانه وتعالى ـ يتزوجها النبي ﷺ بعد طلاقها من زيد، فترقى إلى أعلى الدرجات، ويؤمن الناس بالمبدأ الإسلامي الرشيد الذي طبق عملياً في هذه الحادثة، وهو مبدأ المساواة بين جميع الناس، بالإضافة إلى تشريع الزواج بزوجة المتبنى إذا طلقت، أو توفي عنها زوجها وأنها ليست كزوجة الابن الحقيقي.

ومن خلال ما سبق، يتضح أن زواجه ﷺ بزينب كان لأمر تشريعي، وأن تعدد زوجاته كان بأمر من الله سبحانه وتعالى ولأهداف سامية رفيعة، تشريعية ودينية واجتماعية وسياسية وغيرها، والذي يؤكد ذلك قوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ . . .﴾[9].

وبهذا لم يكن زواجه بها لقضاء شهوة، كما يزعم الجاهلون، بل كان زواجه بها للتشريع، ولتنفيذ ما أمر الله به. وفي البخاري أن زينب كانت تفخر على أزواج النبي ﷺ فتقول: زوجكن أهاليكن وزوجني الله تعالى.

---

(8) الاستيعاب لابن عبد البر، جـ4: 1805 ـ حدائق الأنوار ومطالع الأسرار ابن ربيع الشيباني الشافعي جـ2: 602.

(9) سورة الأحزاب، الآية: 38.

وفي ابن كثير[10]، إنها كانت تقول: إن الله أنكحني للرسول ﷺ والسفير كان جبريل عليه السلام.

وأما من قال إنه ﷺ، عندما رآها أعجبته، فإن ذلك إقدام فظيع من قائله، وقلة معرفة بحق الرسول ﷺ وبفضله وأخلاقه العالية، وإلا؛ كيف يزعم ذلك وهي ابنة عمته، وكان يراها منذ الصغر وهو الذي خطبها لزيد، ولعل تلك الفرية قد دُسّت على ابن إسحاق.

ولقد وجدت، مثل هذه الأكذوبة في بعض كتب السيرة، ولكن ما وجدته في كتب المستشرقين عن هذه الحادثة أدهى وأمر. فهذا إميل[11] درمنغم في كتابه، حياة محمد، الذي قال عنه مترجم كتابه عادل زعيتر: إن كتابه أكثر الكتب التي ألفها الغربيون عن الرسول اعتدالاً.

هذا المستشرق يذكر حدوثة الإعجاب هذه، ويزيد عليها افتراءات ومزاعم، لا تصدر حتى من الإنسان العادي الذي يتصف بالأخلاق الحسنة، فكيف بالرسول ﷺ الذي قال الله تعالى فيه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[12].

2 ـ الخبر الثاني قصة سورة النجم، وسجود المشركين والغرانيق:

إن هذا الخبر أخطر وأغرب وأشنع من سابقه، وذلك عندما تحدث ابن إسحاق عن مهاجري الحبشة ودون أن يسند حديثه قال: فأقاموا[13] حتى بلغهم أن أهل مكة، قد أسلموا وسجدوا، وذلك أن سورة النجم أنزلت على الرسول ﷺ فقرأها رسول الله ﷺ، فأنصت إليها كل مسلم ومشرك حتى انتهى إلى قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ﴾ فأصاخوا له، والمؤمنون يتصدقون، وارتد ناس حين سمعوا سجع الشيطان. فقال: والله لنعبدهن ليقربونا إلى الله

(10) ابن كثير جـ3: 279.

(11) حياة محمد أميل درمنغم نقله إلى العربية عادل زعيتر 299: 305 ط2 1949.

(12) سورة القلم، الآية: 4.

(13) ابن إسحاق 157، 158.

زلفى. وعلّم الشيطان تينك الآيتين كل مشرك، وزلّت بها ألسنتهم، وكبر ذلك على الرسول ﷺ حتى أتاه جبريل عليه السلام، فشكا إليه هاتين الآيتين وما لقي من الناس فيهما. فتبرأ جبريل عليه السلام منهما وقال: لقد تلوت على الناس ما لم آتك به عن الله عزّ وجلّ، وقلت ما لم يقل لك. فحزن الرسول ﷺ حزناً شديداً، وخاف. فأنزل الله عز وجل يعزيه... ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ ....﴾ إلى قوله: ﴿عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾[14].

وعندما رجعت إلى كتب التفاسير والسنة والسيرة لم أجد تأكيداً لهذه القصة في بعضها، والبعض الآخر لم يتعرض لها إطلاقاً؛ ففي تفسير التحرير[15] والتنوير يقول: إن هذه القصة لا أساس لها من الصحة، وما رويت إلا بأسانيد واهية، ومنتهاها إلى ذكر قصة مزعومة، وليس في أحد أسانيدها سماع صحابي لشيء في مجلس النبي ﷺ وسندها إلى ابن عباس سند مطعون، على أن ابن عباس يوم نزلت سورة النجم، كان لا يحضر مجالس النبي ﷺ، وهي أخبار آحاد تعارض أصول الدين، لأنها تخالف أصل عصمة الرسول ﷺ لا التباس عليه في تلقي الوحي، ويكفي تكذيباً لها قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ﴾.

فلو رواها الثقات لوجب رفضها وتأويلها فكيف وهي ضعيفة واهية، وكيف يروج على ذي مسكة من عقل أن يجتمع من كلام واحد تسفيه المشركين في عبادتهم الأصنام بقوله: ﴿أَفَرَءَيۡتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلۡعُزَّىٰ﴾ إلى قوله: ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ﴾، فيقع من خلال ذلك مدحها بأنها الغرانيق[16] العلى، وأن شفاعتهن لترتجى وهل هذا إلا كلام يلعن بعضه بعضاً. وقد اتفق الحاكون أن النبي ﷺ قرأ سورة النجم كلها حتى خاتمتها ﴿فَٱسۡجُدُواْ لِلَّهِ وَٱعۡبُدُواْ﴾، لأنهم إنما سجدوا حين سجد المسلمون، فدل ذلك على أنهم سمعوا السورة كلها، وما بين آية ﴿أَفَرَءَيۡتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلۡعُزَّىٰ﴾، وبين آخر السورة آيات كثيرة في إبطال الأصنام، وغيرها من

---

(14) سورة الحج، الآية: 52.

(15) تفسير التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور جـ17: 304.

(16) الغرانيق هي الطيور تعلو في السماء، فالأصنام مشبهة بها عندهم في علو القدر.

معبودات المشركين، وتزييف كثير لعقائد الكفار، فكيف يصح أن المشركين سجدوا من أجل الثناء على آلهتهم.

ولكن ربما، إن لم تكن تلك الأخبار مكذوبة من أصلها، فإن تأويلها أن بعض المشركين وجدوا ذكر اللات والعزى فرصة لاختلاق كلمات في مدحهن، وهي تلك الكلمات، وروجوها بين الناس تأنيساً لأوليائهم من المشركين، وإلقاءً للريب في قلوب ضعفاء الإيمان.

وبهذا تكون تلك الشائعة التي أشيعت بين المشركين في أول الإسلام، إنما هي من اختلاقات سفهاء الأحلام بمكة، وإنما خصوا سورة النجم بهذه المرجفة، لأنهم حضروا قراءتها في المسجد الحرام وتعلقت بأذهانهم، تطلباً لإيجاد المعذرة لهم بين قومهم على سجودهم فيها، الذي جعله الله معجزة للنبي ﷺ.

ويؤكد البخاري[17] هذا القول، بأن الرسول ﷺ قرأ سورة النجم، وعندما سجد في نهايتها سجد المسلمون والمشركون والإنس والجن، ولم يذكر حديث الغرانيق.

وفي ابن كثير[18]: أن النبي ﷺ كان جالساً يوماً في المسجد الحرام، وأُنزل عليه النجم، فقرأها حتى ختمها، وسجد، فسجد من هناك من المسلمين والمشركين والجن والإنس، وإن الناقل عندما رأى المشركين قد سجدوا متابعة للرسول ﷺ اعتقد أنهم قد أسلموا فطار الخبر، وانتشر حتى بلغ مهاجرة الحبشة، فظنوا صحة ذلك، فأقبل منهم طائفة طامعين بذلك وثبتت جماعة..

والكاشف[19] يقول: نفى العلماء المحققون تلك القصة وجزموا بأنها من وضع الزنادقة الطاعنين في كتاب الله ونبوة محمد ﷺ، واستندوا في ذلك إلى أدلة قاطعة من العقل والنقل، فالنبي الذي أرسله الله لمحاربة الشرك والأوثان

---

(17) صحيح البخاري

(18) سيرة ابن كثير مجلد 2: 5756، وانظر أيضاً البخاري بشرح الكرماني جـ18: 115.

(19) تفسير الكاشف، محمد جواد مغنية، ص5: 340، دار العلم للملايين، بيروت.

يمتدحها وينعتها بأعلى النعوت والأوصاف، كيف ولسان النبي ﷺ بيان الله وترجمانه؟ وهل للشيطان من سبيل على هذا البيان القدسي، وهذه الترجمة الإلهية، والله سبحانه وتعالى يقول في رسوله ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾[20] ويقول: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ . . .﴾[21] ويقول: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ﴾[22] ويقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ . . . وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ . . .﴾[23].

ولقد واصلت البحث في الكتب حتى أتأكد من نفي ذلك الخبر المزعوم، فكان كتاب[24] حياة محمد ورسالته يقول: لقد نزلت على الرسول ﷺ، سورة النجم التي وردت في خاتمتها الآية التي تأمر بالسجود لله فسجد الرسول ﷺ، بعد قوله تعالى: ﴿فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟﴾ وسجد المشركون الذين شهدوا مجلس النبي ﷺ، وذلك بأنهم آمنوا بالله، على الرغم من عبادتهم للأوثان.

ويحلل البعض سجود المشركين، بالإضافة إلى أنه معجزة للرسول ﷺ، بأن سورة النجم لها تأثير عظيم في النفوس والقلوب، وأنه ﷺ تلا سورة النجم، واستمع إليه المسلمون والمشركون، ثم كان في النهاية قوله تعالى: ﴿فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟﴾ إنها لصيحة مزلزلة مذهلة في هذا السياق، وبعد هذا التمهيد الطويل الذي ترتعش له القلوب، ومن ثم سجدوا. وسجدوا وهم مشركون، وهم يجادلون في الله ورسوله، سجدوا تحت هذه المطارق الهائلة التي وقعت على قلوبهم، والرسول ﷺ يتلو هذه السورة، وعندما يسجد، يسجد الجميع، لا يملكون أن يقاوموا وقع هذا القرآن، ثم أقاموا بعد فترة، فإذا هم في ذهول من سجودهم، كذهولهم وهم يسجدون، كما أنني وجدت عبد العزيز الدباغ[25]

---

(20) سورة النجم، الآية: 3.

(21) سورة يونس، الآية: 5.

(22) سورة الحاقة، الآية: 44.

(23) سورة المائدة، الآية: 67.

(24) حياة محمد ورسالته، محمد علي ص 63 ط1963.

(25) الإبريز 240: 243.

يأتي بالحجة الدامغة لنفي خبر الغرانيق فيقول: لم يقع للرسول ﷺ شيء من ذلك ـ أي مسألة الغرانيق ولو وقع ذلك للنبي ﷺ لارتفعت الثقة بالشريعة الإسلامية، وبطل حكم العصمة وصار ﷺ، كغيره من آحاد الناس، حيث كان للشيطان سلطة عليه، وعلى كلامه، يزيد فيه ما لا يريده، ولا يحبه ولا يرضاه، فأي ثقة تبقى في الرسالة مع هذا الأمر العظيم، ولا يغني في الجواب أن الله ينسخ ما يلقي الشيطان، ويحكم آياته، لاحتمال أن يكون ذاك الكلام من الشيطان، وأيضاً، كما جاز أن يتسلط على الوحي بزيادة مسألة الغرانيق، يجوز أن يتسلط على الوحي بزيادة هذه الآية برمتها فيه، وحينئذ يتطرق الشك إلى جميع آيات القرآن، فالواجب على المؤمن الإعراض عن مثل هذه الأحاديث الموجبة لمثل هذا الريب في الدين، وأن يعتقد في الرسول ﷺ ما يجب له من كمال العصمة، لأن من المعلوم بالضرورة أن أعظم سعي الرسول ﷺ، كان في نفي الأوثان، ويستحيل أن يعترف بشفاعة الغرانيق، وهو يدعو إلى عبادة الله، ويحارب عبادة الأصنام، ثم إنه لو جوَّز ذلك، ارتفع الأمان.. عن شرعه، وجوزنا في كل واحد من الأحكام والشرائع مثل ذلك، وهذا يبطل قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ وهذا يستحيل استحالة تامة، وبهذا تكون قصة الغرانيق باطلة مدسوسة، من وضع الزنادقة أعداء الإسلام، ثم عمد خصوم الإسلام إلى ترويجها، والزيادة عليها، والخلاصة من جوز على النبي ﷺ تعظيم الأوثان فقد كفر.

أما بالنسبة لعودة مهاجرة الحبشة، فإنهم عندما سمعوا بسجود الكفار ظنوا أنهم[26] أسلموا، فعاد من عاد منهم، وقد يكون من عاد إلى مكة من مهاجرة الحبشة، إنما فعل ذلك لكي يحدّث سائر إخوانه حديث الأمن والحرية، في ظل النجاشي، حتى يقنع من يرافقهم إلى هناك، وهذا ما حدث في الهجرة الثانية للحبشة، وقيل عادوا لأنهم سئموا الاغتراب، وحنوا إلى وطنهم[27]، وظنوا أن القوم قد رجعوا عن غيهم، فلما رجعوا، وجدوهم، كما كانوا، وأشد بطشاً.

---

(26) تهذيب سيرة ابن هشام، لعبد السلام هارون ص96، بيروت.

(27) انظر مورد الصفاء، أحمد الحملاوي 30.

ويقول ابن عاشور[28]: إن ربط تلك القصة، بقصة وحدث رجوع من رجع من مهاجرة الحبشة، وكم بين سنة نزول سورة النجم، وبين سنة رجوع من رجع من مهاجرة الحبشة فإن بينهما فترة من الزمن.

أما تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾[29].

ولقد حاولت الرجوع إلى الكثير من كتب التفسير، فوجدت أن معنى الآية ليس له علاقة بسورة النجم كما ذكر ابن إسحاق، ولكن للآية معناها المستقل، ولهذا رأيت أن أذكر تلك الآراء، ومن تلك التفاسير[30] أن الأنبياء والرسول يرجون اهتداء قومهم ما استطاعوا، فيبلغونهم ما ينزل إليهم من الله، ويعظونهم ويدعونهم بالحجة والمجادلة الحسنة، حتى يظنوا أن أمنيتهم قد نجحت، ويقترب القوم من الإيمان، فيأتي الشيطان، فلا يزال يوسوس في نفوس الكفار، فينكصون على أعقابهم، وتلك الوساوس ضروب شتى؛ من تذكيرهم بحب آلهتهم، ومن تخويفهم بسوء عاقبة نبذ دينهم، ونحو ذلك من ضروب الضلالات التي جُليت عنهم في تفاصيل القرآن فيتمسك أهل الضلالة بدينهم، ويصدون عنهم دعوة رسلهم، وكلما أفسد الشيطان دعوة الرسل أمر الله رسله فعاودوا الإرشاد، وكرروه وهو سبب تكرر مواعظ متماثلة في القرآن، فبتلك المعاودة ينسخ ما ألقاه الشيطان، أي ينسخ آثار ما يلقي الشيطان من الوساوس ويحكم آثار آياته، وبذلك تكون الآية بمعزل عما ألصقه بها الملصقون، والضعفاء في علوم السنة، وتلقاه منهم فريق من المفسرين، حباً في غرائب الأخبار، دون تأمل وتمحيص، فقد قالوا: إن الآية نزلت في قصة تتعلق بسورة النجم، فلم يكتفوا، بما أفسدوا من معنى هذه الآية، حتى تجاوزوا بهذا الإلصاق إلى إفساد معاني سورة النجم، والمعروف كم بين نزول سورة النجم، التي هي من أوائل السور

---

(28) تفسير التحرير والتنوير، جـ17: 306.

(29) سورة الحج، الآية: 52.

(30) التحرير والتنوير، جـ18.

النازلة بمكة، وبين نزول سورة الحج، التي بعضها من أول ما نزل بالمدينة، وبعضها من آخر ما نزل بمكة.

ووجدت من قال في تفسير هذه الآية[31]: إن هذه الآية مسلاة ثابتة للرسول ﷺ، باعتبار أن من مضى من الرسل، كانوا حريصين على إيمان قومهم وأنه ما منهم أحد إلا وكان الشيطان يراغمه بتزيين الكفر لقومه، وإلقائه في نفوسهم، كما أنه ﷺ، كان من أحرص الناس على هداية قومه، وكان فيهم شياطين الإنس والجن، ولهذا جاء قبل هذه الآية ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْا۟ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا مُعَـٰجِزِينَ﴾، وسعيهم بإلقاء الشبه في قلوب من استمالوه، ونسب ذلك إلى الشيطان، لأنه هو المغوي والمحرك لشياطين الإنس للإغواء. ومعنى ينسخ الله أي يزيل تلك الشبهة شيئاً فشيئاً حتى يسلم الناس.

وهناك من قال: إن أغلى أمنية[32] للنبي والرسول أن يعرف الناس حقيقة رسالته، ويدركوا أهدافها، ويهتدوا بها، ولكن أرباب الأهداف، والأطماع يحولون بين النبي وتحقيق أمنيته بالتمويه، وبث الأكاذيب بكل وسيلة من وسائل الدعاية والنشر وهذا هو معنى إلقاء الشيطان في أمنية النبي والرسول، فالرسول يتمنى الخير للناس، والشيطان، أي المخرب، يصدهم عنه ﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَـٰنُ . . .﴾.

يختلق المخربون، ويذيعون، ولكن الله يزهق أباطيلهم، ويفضح أكاذيبهم بألسنة الصادقين، وأيدي المجاهدين، وفي معنى هذه الآية قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾[33]. وعندما وصلت إلى تفسير الدباغ لهذه الآية، وجدت فيه التفسير الرفيع الذي يناسب مقام الرسالة، فهو يقول:

ما أرسل الله من رسول، ولا بعث من نبي، إلا وذلك الرسول يتمنى

(31) تفسير البحر المحيط، ص6: 380.

(32) انظر الكاشف جـ5: 340.

(33) سورة التوبة، الآية: 3.

الإيمان لأمته، ويرغب فيه ويحرص عليه غاية الحرص، ومن جملتهم في ذلك النبي محمد ﷺ، والناس منهم من كفر، فألقى الشيطان الوساوس القادحة له في الرسالة الموجبة لكفره، وكذا المؤمن لا يخلو من وساوس، لأنها لازمة للإيمان بالغيب في الغالب، وإن كانت تختلف في الناس بالقلة والكثرة، وبحسب المتعلقات. وإذا تقرر هذا المعنى يكون ﴿تمنى﴾ أي يتمنَّى الإيمان لأمته، ويحب لهم الخير، والرشاد والصلاح، فهذه أمنية كل رسول ونبي، وإلقاء الشيطان فيها يكون بما يلقيه في قلوب أمة الدعوة من الوساوس الموجبة لكفر بعضهم، ويرحم الله المؤمنين، فينسخ ذلك من قلوبهم، ويحكم فيها الآيات الدالة على الوحدانية والرسالة.

وإنني، مع كل هذه الأفكار والتفاسير النيرة، التي تناسب مقام النبوة، وعصمة الرسل، لأنه ليس من المعقول بل من المستحيل استحالة تامة، عقلاً وشرعاً، أن يتدخل الشيطان في الوحي فيزيد فيه، أو ينقص منه، والله يقول: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾.

3 ـ خبر زواج عبد الله بن عبد المطلب بآمنة بنت وهب:

يذكر ابن إسحاق الخبر[34] دون إسناد فيقول:

ثم انصرف عبد المطلب آخذاً بيد عبد الله، فمر به فيما يزعمون على امرأة من بني أسد، وهي عند الكعبة، فقالت له حين نظرت إلى وجهه فيما يذكرون: أين تذهب يا عبد الله؟ قال: مع أبي، قالت: لك عندي مثل الإبل التي نُحِرَتْ عليك، وقَعْ عليّ الآن، فقال: إني معي أبي، ولا أستطيع خلافه ولافراقه، ولا أريد أن أعصيه شيئاً، فخرج به عبد المطلب حتى أتى به وهب ابن زهرة، فزوجه آمنة بنت وهب، وهي يؤمئذ أفضل امرأة في قريش نسباً وموضعاً. . . . ثم يقول فذكروا أنه دخل عليها. . فحملت برسول ﷺ، ثم خرج من عندها حتى أتى المرأة التي قالت له ما قالت وهي أخت ورقة بن نوفل

(34) سيرة ابن إسحاق 19: 21.

فجلس إليها، وقال: مالك لا تعرضين عليّ اليوم مثل الذي عرضت عليّ بالأمس، قالت: فارقك النور الذي كان فيك..

ثم يعود ابن إسحاق مرة أخرى لذكر عبد الله، فيقول: حدثني والدي إسحاق بن يسار، قال: حُدِثت أنه كان لعبد الله امرأة مع آمنة بنت وهب، فمرَّ بامرأته تلك، وقد أصابه أثر طين عمل به، فدعاها إلى نفسه فأبطأت عليه... فدخل على آمنة... ويقول ابن إسحاق أيضاً حُدِثت أن امرأته تلك كانت تقول: كان بين عينيه نورٌ مثل الغرة، فدعوته رجاء أن يكون ليّ... فكان لآمنة، فحملت برسول الله ﷺ.

وفي ابن هشام نجد الخبر نفسه إلا أنه يذكر أن اسم المرأة رقية أخت ورقة بن نوفل....[35]

وفي الطبري يقول: خرج عبد المطلب بعبد الله ليزوجه فمرَّ على كاهنة من خشعم يقال لها فاطمة بنت متهودة أو متهورة من أهل قبال قد قرأت الكتب...[36] ومن خلال ما سبق، نجد الروايات كلها عن ابن إسحاق، إلا أنها مختلفة في المرأة التي عرضت نفسها على عبد الله، بالإضافة إلى أن تلك الروايات كانت مسنودة إلى مجاهيل، أو غير متصلة السند، ويذكر ابن إسحاق المرأة بأنها كانت جالسة عند الكعبة، ومرة أخرى يقول: إنها امرأة ثانية عند عبد الله، وابن هشام يقول: إنها رقية أخت ورقة بن نوفل، في حين أنَّ الطبري يقول اسمها فاطمة، قرأت الكتب، وعرضت على عبد الله مائة من الإبل...

وبعد هذا العرض لروايات ابن إسحاق في هذا الموضوع، أردت أن أعرف ما قيل في هذا الخبر في كتب السيرة، فمثلاً في السيرة[37] الحلبية، أن كاهنة عرضت على عبد الله الزواج قبل آمنة، لما رأت عليه من أمارات أو نور... وكان اسمها قتيلة، وقد سمعت من أخيها ورقة أنه كائن في هذه الأمة

---

(35) ابن هشام جـ1: 143.

(36) الطبري جـ2: 244.

(37) السيرة الحلبية جـ1: 34.

نبي، ومن دلائله أن يكون نوراً في وجه أبيه، أو أنها أُلهمت ذلك فقالت: لعبد الله ما قالت.. وفي رواية أخرى[38]؛ عندما مر عبد الله مع أبيه في طريقه إلى بيت آمنة، على كاهنة من أصل تبالة باليمن، كانت قد قرأت الكتب، فرأت نور النبوة في وجه عبد الله، فقالت له: يا فتى هل لك أن تنكحني وأعطيك مائة من الإبل؟ فقال لها: إني مع أبي، وبعد زواجه بآمنة مر بالمرأة نفسها، فقال لها: مالك لا تعرضين عليّ اليوم، ما عرضت بالأمس، فقالت له: فارقك النور الذي كان معك بالأمس...[39]

وفي كتاب (محمد رسولاً نبياً): إن عبد اللّه كان شاباً جميلاً، كريم الخلق، لم يعرف عنه ما كان شائعاً بين شباب العرب من مجون، وفسق، وفحش، بل كان عفيفاً رزيناً حليماً، وكان مطمع كل بيوتات العرب، وأشرافهم، يرغبون في مصاهرته، وكان فارس أحلام كل فتيات العرب، وأكثرهُنَّ طمعاً فيه، وأحرصهن طلباً له أخت ورقة بن نوفل، فلم تكن تلقاه إلا حدثته في أمر زواجه بها، فلما علمت خروجه مع أبيه للزواج قابلته، وقالت له: لك مثل الإبل التي نحرت عليك، وتتزوجني فقال: أنا مع أبي ولا أستطيع خلافه، فلما تزوج آمنة، ولقى أخت ورقة في اليوم التالي فداعبها بقوله: لِمَ لَمْ تعرضي عليّ اليوم ما عرضت في الأمس؟ فردت عليه قائلة: لقد فارقك النور الذي كان معك[40]، وقيل إنما قال لها عبد اللّه ذلك حتى يعرف السبب في عرضها السخي بالأمس.

ويقول العقاد: لقد جاء في أكثر من خبر أن فتيات مكة ذهبت بهن الحسرة، لزواج عبد اللّه بآمنة، وكانت كل فتاة تتمناه، زوجاً لها، لجماله، وأخلاقه، وكريم صفاته، وكانت آمنة أفضل نساء قريش نسباً، وحسباً، وشرفاً، وجمالاً، ولما حملت بالرسول ﷺ، انتقل النور الذي كان في وجه عبد اللّه إلى وجه آمنة[41].

---

(38) المرجع السابق جـ1: 43: 44.

(39) عبد الرزاق نوفل، ص68.

(40) محمد رسول الله، محمد رضا ص25 ط3.

(41) مطلع النور أو طوالع البعثة المحمدية، عباس العقاد ص39 بيروت.

ومن خلال الروايات السابقة، اتضح أن المرأة كانت تريد الزواج بعبد اللّه... وليس كما ذكر ابن إسحاق في رواياته، بأن المرأة تريد العلاقة المحرمة، ثم هذه الروايات عن تلك المرأة التي عرضت نفسها للزواج من عبد اللّه، يثبت لنا معنى صادق الدلالة على شعور الناس بصاحب الرسالة، كما يثبت لنا لوناً من تعبيرهم عن ذلك الشعور، وهذه الكاهنة التي تريد أن تحمل بالنبي، فلعلها عرفت من الكتب القديمة، صفات النبي المنتظر وأبيه، أو لعلها توسمت في عبد اللّه أن يكون أباً للنبي المنتظر لما يتصف به من الأخلاق العالية، والصفات الحميدة، أما بالنسبة للعلم بالغيب، فإن القرآن ينفي علم الكهان بالغيب، كما ينكره على أعوانهم من الجان، فلا كاهن يعلم سراً من أسرار الدنيا الغيبية، فضلاً عن أسرار النبوة والرسالة، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾[42].

أما بالنسبة للمرأة الأخرى التي كانت مع آمنة، والتي ذكرها ابن إسحاق في روايته، فإنني لم أعثر على خبر يؤيد رواية ابن إسحاق، وجميع كتب السيرة، يذكر أن عبد اللّه تزوج آمنة فقط، وأنها حملت بالرسول ﷺ، ومات عبد اللّه، والرسول ﷺ ما زال جنيناً في بطن أمه آمنة بنت وهب.

4 ـ خبر طلاق سودة بنت زمعة زوجة النبي ﷺ:

من روايات يونس بن بكير في سيرة ابن إسحاق، وبسند مقطوع يقول: إن الرسول ﷺ قال لسودة بنت زمعة: **«اعتدّي فتعرضت له في طريقه»**، فقالت: نشدتك بالله إلا راجعتني، ولك يومي أجعله لأي نسائك شئت، فإنما أريد أن أحشر من أزواجك يوم القيامة فراجعها الرسول ﷺ..[43].

وهذا الخبر بعيد التصديق، ولا يمكن الأخذ به، لأن سودة بنت زمعة كانت كبيرة في السن، ذات عيال قبل أن يتزوجها الرسول ﷺ، وأنه ﷺ

(42) سورة سبأ، الآية 14.

(43) ابن إسحاق 238.

تزوجها لأنها مؤمنة، هاجرت إلى الحبشة، ثم عادت إلى مكة مع زوجها، وعندما توفي عنها زوجها تزوجها ﷺ إكراماً لزوجها، ورعاية لها ولأولادها، وحماية لدينها، فكيف يطلقها بعد ذلك؟ وهو الذي خُلُقُه القرآن كما قالت عنه السيدة عائشة زوجه عندما سئلت عن أخلاقه، بالإضافة إلى أن قلوب الأنبياء نور منذ ولادتهم، والنور له خصائص التوجه إلى الله، وهذا يمنعه أن يتجه إلى غير الله فلا تقع منه معصية، ولا ظلم، ولا طغيان.

ومع هذا رجعت إلى كتب السيرة، ومنها ابن كثير، فهو يقول: عندما خطب الرسول ﷺ سودة امتنعت في البداية فقال لها ﷺ: «**ما يمنعك مني؟**» فقالت: والله يا نبي الله ما يمنعني منك أن لا تكون أحب البريه إليّ، ولكن أكرمك أن يمنعوا هؤلاء الصبية عند رأسك بكرة وعشية، وكان لها خمسة صبية من بعلها الذي مات، فقال الرسول ﷺ: «**فهل منعك مني غير ذلك**» قالت: لا والله. قال لها ﷺ: «**يرحمك الله إن خير نساء ركبن أعجاز الإبل نساء قريش أحناه على ولد في صغره وأرعاه على بعل بذات يده...**»[44].

وفي كتب الأحاديث، مسلم والترمذي وغيرهم، لم تذكر أن الرسول ﷺ، تكلم في طلاق سودة، لأنها أصبحت كبيرة في السن، وكل ما ذكروه أنه ﷺ تزوجها ليتكفل بمطالبها ومطالب عيالها، فكيف يطلقها بعدما أصبحت أكثر حاجة إليه؟.

والخلاصة، ومن خلال سيرته ﷺ، إنه بالمؤمنين رؤوف رحيم، ويعز عليه ما يصيب المسلمين، من ظلم وعنت، ما طلق سودة ولا فكر في طلاقها، ولكن سودة كانت كبيرة السن، طيبة القلب تتصرف بفطرتها فتنازلت عن يومها لعائشة، محبة لعائشة، ولرسول الله ﷺ.

5 ـ خبر عثمان بن عفّان وعمر بن الخطاب:

من روايات يونس بن بكر بسند مقطوع، يقول: أتى الرسول ﷺ على عثمان وهو مهموم، فقال له الرسول ﷺ: «**ما لك؟**» قال: خطبت إلى عمر،

---

(44) سيرة ابن كثير، تحقيق مصطفى عبد الواحد، جـ2: 145 ط1964، القاهرة.

فردني. فقال الرسول ﷺ: **«أفلا أدلك على ختن خير لك من عمر، وأدل عمر على ختن خير منك؟»** فتزوج الرسول ﷺ حفصة بنت عمر، وزوج النبي ﷺ ابنته عثمان بن عفان[45].

ولكنَّ المعروف في كتب السيرة، وكتب السنة، أن عمر بن الخطاب هو الذي عرض بنته حفصة على أبي بكر، ثم عثمان، وكانت هذه العادة معروفة عند العرب، ولا حرج، فمن حق الأب أن يختار لابنته الزوج المناسب، وهذا ما فعله عمر.

ففي البخاري[46]: أن عمر بن الخطاب، حين تأيمت حفصة ابنته ـ أي مات عنها زوجها ـ قال عمر: أتيت عثمان بن عفان فعرضت عليه حفصة، فقال: سأنظر في أمري، فلبثت ليالي، ثم لقيني فقال: قد بدا لي أن لا أتزوج يومي هذا. قال عمر: فلقيت أبا بكر الصديق فقلت: إن شئت زوجتك حفصة، فصمت أبو بكر، ثم لم يرجع إليّ شيئاً، وكنت أَوْجَدَ عليه مني على عثمان، فلبثت ليالي ثم خطبها الرسول ﷺ فأنكحتها إياه، فلقيني أبو بكر فقال: لعلك وَجَدْتَ عليّ حين عرضت حفصة، فلم أرجع إليك شيئاً قال عمر قلت: نعم، قال أبو بكر: فإنه لم يمنعني أن أرجع إليك فيما عرضت عليّ إلا أنّي كنت علمت أن الرسول ﷺ قد ذكرها، فلم أكن لأفشي سر الرسول ﷺ، ولو تركها ﷺ، تزوجتها.

وفي كتب كثيرة للسيرة والسنة، ذكرت نفس الخبر في زواجه ﷺ بحفصة، وفي موكب السيرة النبوية: إن حفصة بعد وفاة زوجها أراد عمر أن يزوجها أبا بكر، ولما أعرض أبو بكر عنها، قال عمر: خسرت خسرت حفصة، ثم ما لبثت أن خطبها النبي ﷺ، فقال أبو بكر: قد علمت أن النبي ﷺ ذكرها ولكني ما كنت لأفشي سر الرسول ﷺ... [47].

---

(45) ابن إسحاق 237.

(46) البخاري جـ7: 17.

(47) أراد عمر أن يختار لابنته أبا بكر أو عثمان، ولم يكن يطمع في مصاهرة الرسول ﷺ، فشرفه ﷺ بالزواج من ابنته حفصة، وأصبح من حقه الدخول إلى بيت النبي ﷺ، وهذا شرف كبير.

6 ـ خبر سيدنا يونس عليه السلام:

يذكر ابن إسحاق بسند مقطوع عن ابن منبه ذُكِر له يونس عليه السلام فقال: كان عبداً صالحاً وكان في خلقه ضيق: فلما حملت عليه أثقال النبوة ـ ولها أثقال، فلما حملت عليه تفسخ تحتها... فألقاها عنه وخرج هارباً[48].

و في رواية الطبري يقول ابن أبي سلمة، عن ابن عباس قال: بعث الله، سبحانه وتعالى، يونس إلى أهل قرية فردوا عليه ما جاءهم به، وامتنعوا منه، فلما فعلوا ذلك أوحى الله إليه إني مرسل عليهم العذاب في يوم كذا و كذا فأخرج من بين أظهرهم، ولكن قومه عندما رأوا خروجه عجوا إلى الله، واستقالوا فأقالهم، وعندما علم يونس عليه السلام، أن الله لم ينزل بهم العذاب[49] ومنعهم إلى حين، وكشف عنهم العذاب، قال: لن أرجع إليهم كذاباً أبداً، ومضى مغاضباً، وركب السفينة، فأصاب أهلها عاصفة من الريح فقالوا: هذه لخطيئة أحدكم فقال: أنا صاحب الذنب وألقى بنفسه في البحر، فابتلعه الحوت حتى أمره الله بقذفه كما في قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ[50] لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾.

ونجد هناك فرقاً بين الروايتين، بالإضافة إلى أنَّ ابن إسحاق يذكر في روايته أن يونس كان عبداً صالحاً، وهو في الحقيقة نبي مرسل إلى قومه والنبي والرسول يختلف عن العبد الصالح والولي الصالح، فمن صفات الأنبياء، العصمة والفطنة وغيرها من الصفات الرفيعة، التي تليق بمقامهم، فهم اختيار الله، لتبليغ رسالته للناس.

وبالرجوع إلى كتب التفسير[51] نجد أن معنى مغاضباً؛ أي غضبان من قومه، إذ أبوا أن يؤمنوا بما أرسل إليهم به، وأنه خرج خروجاً غير مأذون له فيه من الله.

---

(48) ابن إسحاق ص111.

(49) الطبري جـ2: 13: 15.

(50) سورة الصافات، الآية: 143 ـ 144.

(51) تفسير التحرير والتنوير جـ17: 130.

ومعنى قوله تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا﴾، أي غاضباً على قومه، حيث تركوا ما فيه رشدهم وصلاحهم من الإيمان، بما جاء به حتى نزل بهم أمر الله سبحانه وتعالى، وعذابه الذي كان فوق مساكنهم يوشك أن يقع عليهم، فلما رأى ذلك يونس عليه السلام غضب منهم، وفر منهم ظاناً النجاة، وأنه لا يصيبه ما أصابهم، بمنزلة رجل رأى سيلاً جارياً، لا ينجو منه من وقف له، ففر منه ظاناً أن قراره ينجيه من تلك السيول، أو من تلك النار، فهذه حالته عليه السلام، ولهذا فإن فراره لظنه النجاة من العذاب النازل بقومه لا إعجازاً للقدرة، وخروجاً عن إحاطة ربه سبحانه وتعالى به...[52]. وإنني مقتنعة بهذا التأويل الذي يليق بمقام سيدنا يونس عليه السلام.

7 ـ خبر عصمة الله للرسول ﷺ حتى في التسلية:

يقول ابن إسحاق: إن الرسول ﷺ قال: ما هممت بشيء مما كان أهل الجاهلية يهمون به من النساء إلا ليلتين، كلتاهما عصمني الله فيهما. قلت ليلة لبعض فتيان مكة، ونحن في رعاية غنم أهلنا، فقلت لصاحبي: تبصر لي غنمي حتى أدخل مكة، فأسمر فيها كما يسمر الفتيان؟ فقال: علي. قال: فدخلت، حتى إذا جئت أول دار من دور مكة سمعت عزفاً بالغرابيل والمزامير، فقلت ما هذا: فقيل: تزوج فلان فلانة. فجلست أنظر، وضرب الله على أذني، فوالله ما أيقظني إلا مس الشمس، فرجعت إلى صاحبي. فقال: ما فعلت، فقلت: ما فعلت شيئاً، ثم أخبرته بالذي رأيت، ثم قال له ليلة أخرى ما قاله في الليلة الأولى، وحدث فيها ما حدث في الليلة الأولى...[53].

قال ابن كثير عن هذا الخبر: وهذا الحديث غريب جداً[54]، والذي يؤدي إلى العجب والاستغراب في هذا الخبر موضوع النساء، والأنبياء لهم نور فطري منذ ولادتهم، يمنعهم من الهبوط إلى الظلمات، فهم معصومون قبل البعثة، وبعد البعثة، فالله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾.

---

(52) الإبريز، عبد العزيز الدباغ ص260.

(53) ابن إسحاق 59.

(54) سيرة ابن كثير جـ1: 202.

فالرسول ﷺ حفظ الله أذنيه حتى من الاستماع إلى الدف والمزامير، فكيف بأمر النساء، فهو ﷺ ومن خلال سيرته، لم يهتم بما كان يهتم به فتيان قريش من النساء وغير النساء، و هو الذي قال فيه ربه ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾، بعد هذا الثناء، والذي يتكلم هو الله جل جلاله، والمتكلَّم عنه سيدنا محمد ﷺ، وطريق وصول الكلام وحي الله، فالمقام مقام رهيب، لأن الله المتكلم، والمتحدَّث عنه أعظم المخلوقات كلها، والكتاب الذي سجل الكلام كتَّاب الله الذي لا ريب فيه. بعد هذا لا يمكن أن أصدق أي خبر أو رواية مهما كان سندها، بالإضافة إلى ذلك، فإن السيرة الحلبية[55]، والبداية والنهاية، والطبري لم يذكروا حدوثة النساء هذه، وكل ما قالوه: إنه ﷺ قال: قلت لفتى: أبصر لي غنمي حتى أسمر والسمر أصله الحديث ليلاً، والاستماع إلى الأحاديث، والقصص وأخبار العرب، والحروب وأيام العرب، بمنزلة وسائل التسلية في وقتنا الحاضر، فالمقصود إذاً السمر البريء، وحتى هذا حفظه الله منه.

8 ـ خبر رقية في الحبشة:

يقول ابن إسحاق: حدثني بعض أهل العلم أن فتية من الحبشة قد رأوا رقية بنت الرسول ﷺ، وهي هناك مع زوجها عثمان بن عفان، وكانت فيما يقال أجمل وأحسن البشر، وكانوا ينظرون إليها.... حتى آذاها ذلك من أمرهم..[56].

وإنني أرى أن ابن إسحاق قد بدأ حديثه عن بعض أهل العلم، ويقصد ببعض أهل العلم، اليهود، والنصارى، الذين لا يعرفون احتراماً للأنبياء والرسل، ومن طبعهم تأليف القصص المفتراة عليهم، وعلى أبنائهم.

وعندما رجعت إلي كتب السيرة لم أجد لهذا الخبر أثراً، والذي روي في

---

(55) السيرة الحلبية، برهان الدين جـ1: 136.، ابن كثير جـ1: 252، البداية والنهاية ابن كثير جـ2: 39، الطبري جـ2: 279.

(56) ابن إسحاق 199.

تلك الكتب، أن رقية أسلمت مع أمها وأخواتها، وعندما تزوجها[57] عثمان بن عفان، هاجرت معه إلى الحبشة الهجرتين، ثم هاجرت إلى المدينة، وفيها مرضت قبيل بدر وتوفيت والمسلمون ببدر[58].

9 ـ خبر خطبة علي بن أبي طالب لبنت أبي جهل:

من روايات يونس بن بكير يقول: خطب علي ابنة أبي جهل إلى عمها الحارث، واستأمر رسول الله ﷺ. فقال: **«عن أي شأنها تسألني؟ عن حسبها؟»** قال: لا، ولكن تأمرني بها. فقال: **«فاطمة بضعة مني ولا أحب أن تجزع. فقال: «لا آتي شيئاً تكرهه»**[59]. ولكنني عندما رجعت إلى الكتب الأخرى وجدت هناك اختلافاً بين الروايات، ففي البخاري[60] مثلاً يقول: إن الرسول ﷺ قال: **«إن بني هاشم بن المغيرة، استأذنوا في أن ينكحوا ابنتهم علي بن أبي طالب، فلا آذن لهم، ثم لا آذن لهم، ثم لا آذن إلا أن يريد علي بن أبي طالب أن يُطلِّق ابنتي، وينكح ابنتهم، فإن فاطمة بضعة مني يريبني ما رابها، ويؤذيني ما أذاها»**، لأنه ﷺ لا يريد، ولا يحب أن تجتمع بنت حبيب الله، وبنت عدو الله في بيت واحد... فقال: ... والله لا تجتمع بنت رسول الله وبنت عدو الله عند رجل واحد.

ومما سبق يتضح أن علي بن أبي طالب لم يخطبها، كما جاء في سيرة ابن إسحاق، ولكن أهلها يريدون تزويجها لعلي بن أبي طالب، ومما يؤكد ذلك أيضاً أن علي بن أبي طالب، لم يفكر في الزواج على فاطمة في حياتها، وأنه بعد أن انتقلت إلى الرفيق الأعلى، تزوج من أُمامة بنت زينب أخت فاطمة الزهراء، بتوصية من فاطمة قبل موتها.

---

(57) سير أعلام النبلاء، الذهبي جـ2: ط1927 دمشق، طبقات ابن سعد جـ3: 54، أسد الغابة ابن الأثير جـ7: 188.

(58) سيرة خاتم المرسلين، محمد خفاجي 472.

(59) ابن إسحاق 238.

(60) البخاري بحاشية السندي جـ3: 265.

15 ـ خبر ورقة بن نوفل:

ومن الأخبار التي فيها مغالطة قول ابن إسحاق: كان ورقة بن نوفل يمر ببلال، وهو يُعَذَّبُ في الإسلام...[61] وعندما رجعت إلى كتب السيرة والسنة، وجدت أن ورقة بن نوفل توفي في الفترة التي فتر فيها الوحي، أي قبل الجهر بالدعوة، وقبل أن يصلوا إلى مرحلة التعذيب، لأن الدعوة في تلك الفترة كانت سراً، بمعنى أن ورقة بن نوفل لم يحضر تعذيب بلال... ففي ابن كثير مثلاً: أن مدة الفترة ـ أي المدة التي فتر فيها الوحي بعد أن نزل قوله تعالى: ﴿اقرأ﴾ ـ كانت هذه المدة بين سنتين وسنتين ونصف، بعدها نزل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنذِرْ﴾، ثم حمي الوحي بعد هذا وتتابع، وقام حينئذ الرسول ـ ﷺ، بالرسالة أتم قيام، دعا إلى الله القريب والبعيد، والأحرار، والعبيد[62]، ومات ورقة في الفترة، ـ أي لم يحضر فترة التعذيب، وأيضاً في ابن كثير قوله: ثم لم ينشب ورقة أن توفي، وفتر الوحي فترة، حتى حزن الرسول ﷺ[63].

وفي الأنوار المحمدية: أن ورقة لم ينشب أن توفي وفتر الوحي فترة حتى حزن النبي ﷺ، ثم نزلت عليه سورة المدثر... فكانت نبوته في سورة «إقرأ»، ورسالته في سورة «المدثر». وبقي مستخفياً حتى نزلت «فأصدع بما تؤمر»، وكانت بعد ثلاث سنين من النبوة... ولما كثر المسلمون وظهر الإيمان، أقبل كفار قريش على من آمن يعذبونهم، ويؤذونهم، ليردوهم عن دينهم[64]. وفي هذا الوقت عذب بلال، فأين ورقة وقد مات في فترة فتور الوحي؟ وأيضاً هناك الكثير من كتب السيرة التي ذكرت قصة ورقة مع الرسول ﷺ، بعد نزول الوحي عليه لأول مرة، وأنه مات بعد ذلك بقليل ـ أي ورقة ـ فتقول تلك الكتب: عندما نزل الوحي على الرسول ﷺ، لأول مرة، رجع إلى خديجة وأخبرها الخبر، فذهبت به إلى ابن عمها ورقة بن نوفل، وكان قد تنصر في الجاهلية،

---

(61) ابن إسحاق 170.

(62) سيرة ابن كثير جـ1: 414، 415.

(63) السابق جـ1: 386.

(64) انظر الأنوار المحمدية من المواهب اللدنية، يوسف النبهاني 39: 45.

وقرأ الكتب القديمة ومنها الإنجيل، فأخبره الرسول ﷺ ما رأى وما سمع، فقال: له ورقة: هذا الناموس الأكبر، وأهل الكتاب يسمون جبريل بهذا الاسم، وقال له ورقة: يا ليتني أكون حياً، فإن أدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً، فإنك لنبي هذه الأمة... ثم لم يلبث ورقة أن توفي بعد ذلك بقليل، إذن فهو لم يحضر تعذيب بلال(65).

وأيضاً مما يدل على أنه لم يحضر الدعوة إلى الإسلام، أن السيدة خديجة سألت الرسول ﷺ عن ورقة فقال: قد رأيته، فرأيت عليه ثياب بياض فأحسبه، لو كان من أهل النار، لم يكن عليه ثياب بياض. ويقول أيضاً: لقد رأيته في الجنة عليه ثياب الحرير لأنه آمن بي(66).

11 ـ خبر زيد بن عمرو بن نفيل:

لقد ذكر ابن إسحاق خبراً لا يمكن وقوعه، ويستحيل أن ينسب للرسول ﷺ، وأسند ابن إسحاق هذا الخبر أيضاً لمجهول، فقال؛ حُدِّثتُ أن رسول الله ﷺ قال، وهو يحدث عن زيد بن عمرو بن نفيل «إن كان لأول من عاب عليّ الأوثان، ونهاني عنها» أقبلت من الطائف، ومعي زيد بن حارثة، حتى مررت بزيد بن عمرو وهو بأعلى مكة، وكانت قريش قد شهرته بفراق دينها، حتى خرج من بين أظهرهم وكان بأعلى مكة، فجلست إليه، ومعي سفرة لي فيها لحم، يحملها زيد بن حارثة من ذبائحنا على أصنامنا، فقربتها له وأنا غلام شاب، فقلت: كل من هذا الطعام أي عم، قال: فلعلها، أي ابن أخي، من ذبائحكم هذه التي تذبحون لأوثانكم؟ فقلت: نعم. فقال: أما إنك يا ابن أخي، لو سألت بنات عبد المطلب، أخبرنك أني لا آكل هذه الذبائح... فقال الرسول ﷺ: **«فما تمسحت بوثن منها بعد ذلك،.. ولا ذبحت لها، حتى أكرمني الله عز وجل برسالته ﷺ»**(67).

---

(65) مورد الصفاء ص27، دلائل النبوة 395 ط1969، محمد رسول الله سيرته وأثره، جلال مظهر 49ط 1970 مصر، محمد رسول الله، محمد رضا 75، كتاب نور الأبصار في مناقب آل بيت النبي المختار، محمد الصادق ص11 ط3 1929.

(66) ابن كثير جـ1: 397: 399.

(67) سيرة ابن إسحاق، تحقيق حميد الله ص98.

وردّي على هذه الفرية، أن الخبر منسوب إلى مجهول في قوله حُدِّث، وهذا يلغي الخبر من أساسه وينسفه، بالإضافة إلى أن الرسول ﷺ، عندما كان غلاماً، لم يكن يعرف زيد بن حارثة، والمعروف من خلال كتب السيرة، أن زيداً أهدته السيدة خديجة للرسول ﷺ، بعد زواجها به.

وإنه ﷺ، لم يعرف عنه التمسح بالأصنام والأوثان، ولم يحضر لها موسماً، إنه ﷺ، كان سلوكه سلوك الأنبياء، قبل أن يكون نبياً يوحى إليه، فقلبه من الأصل نور، ثم زاده الله نوراً، بما أوحى إليه من أنوار، فإنه يمتاز عن البشر؛ كل البشر منذ ولادته بقلب دائم النور، أي بفطرة سليمة، فكيف يوصف بأنه كان يتمسح بالأصنام ويأكل مما ذبح على الأصنام؟ وهو الذي أختاره الله ليكون رسول الله للناس كافة.

ومع إيماني بما ذكرت سابقاً، فأنني بحثتُ في كتب السيرة والسنة، وقد وجدت هذه القصة في بعض الكتب، ولكنها برواية تختلف عن قصة ابن إسحاق، ولم أجد في البعض الآخر أي أثر لخبر زيد هذا، فمثلاً في سيرة محمد رسول[68] الله، يقول: خرج الرسول ﷺ مع زيد بن حارثة يوماً، فالتقيا زيد بن عمرو بن نفيل، فحيا كل واحد منهما صاحبه، فقال الرسول ﷺ: يا زيد مالي أرى قومك أبغضوك قال: والله يا محمد أن ذلك لغير نائلة لي فيهم، ولكن خرجت أبتغي هذا الدين حتى قدمت على أحبار خيبر، فوجدتهم، يعبدون الله ويشركون به، فقلت: ما هذا الدين الذي أبتغي، فخرجت فقال لي شيخ منهم: إنك لتسأل عن دين ما نعلم أحداً يعبد الله به، إلا شيخاً بالحيرة، قال: فخرجت حتى قدمت عليه، فلما رآني قال ممن أنت؟ قلت: أنا من أهل بيت الله... قال: إن الذي تطلب قد ظهر ببلادك، قد بعث نبي طلع نجمه... قال زيد بن حارثة: مات زيد بن عمرو، وأوحي للرسول ﷺ، فقال الرسول ﷺ في زيد بن عمرو: يبعث يوم القيامة أمة... ويقول الواقدي[69]: حدثني علي بن عيسى الحكمي عن أبيه عن عامر بن ربيعة، قال: سمعت

---

(68) محمد رسول الله ﷺ، محمد رضا، ص72.

(69) فتح الباري شرح البخاري جـ8: 143، ابن كثير جـ1: 159، تحقيق مصطفى عبد الواحد.

زيد بن عمرو بن نفيل يقول: أنا انتظر نبياً من ولد إسماعيل، ثم من بني عبد المطلب، ولا أراني أدركه، وأنا أؤمن به وأصدقه، وأشهد أنه نبي، فإن طالت بك الحياة فرأيته، فأقرئه مني السلام، وسأخبرك ما نعته حتى لا يخفى عليك... قال عامر بن ربيعة، فلما أسلمت أخبرت الرسول، ﷺ، قول زيد وإقراءه منه السلام، فرد عليه السلام وقال، ﷺ، قد رأيته في الجنة.

فكيف، وهو يعرف حتى أوصاف النبي، الذي سيبعث، ثم يقول له ما قيل، ما زعم من الأكل مما ذبح على الأنصاب والتمسح بالأصنام؟ كيف؟

وفي البخاري[70]، وجدت حديث السفرة، ولكنها تختلف عن سفرة ابن إسحاق، يقول البخاري: إنّ قريش قدمتها، فأبى الرسول، ﷺ، أن يأكل منها، وأبى أيضاً زيد بن عمرو أن يأكل منها، وقال زيد مخاطباً قريش الذين قدموا السفرة، قال لهم: إني لست آكلاً مما تذبحون على أصنامكم...

والخلاصة: إن الذي يجب الإيمان به إيماناً كاملاً أنه، ﷺ معصوم، من صغره، من كل شيء، حتى من السمر البريء، كما ذكرت سابقاً، فكيف بالأصنام، والتمسح بها؟ وغير ذلك مما لا يليق بمقام النبوة والرسالة.

12 ـ خبر زواج الرسول، ﷺ، بأم سلمة:

من روايات يونس بن بكير[71] في سيرة ابن إسحاق يقول: عندما خطب النبي ﷺ أم سلمة، كان يجلس على أسكفة الباب، ويضع ثوبه، ويتكىء عليه، ويقول: إن كان بك أن أزيدك في الصداق زدتك، وإن أردت أزد النسوة...

إن زواج النبي ﷺ بأم سلمة مذكور في كل كتب السيرة[72] تقريباً، ولم أجد أن الرسول ﷺ جلس ينتظر جواب أم سلمة على أسكفة الباب، وهو الذي

---

(70) البخاري جـ5: 50، فتح الباري بشرح البخاري جـ8: 142، البخاري بشرح الكرماني جـ15: 61.

(71) ابن إسحاق 242.

(72) تهذيب الأسماء للنووي 361، دول الإسلام، الذهبي 38، سيرة ابن هشام، جـ4: 215، السير للشماخي 242، محمد رسول الله ﷺ مظهر 49 وغيرهم.

حياته كلها جهاد، وتعليم المسلمين أمور دينهم، ودنياهم، بالإضافة إلى أن زواجه ﷺ منها كان لحمايتها، والتكفل بأبنائها الذين هم أبناء أخيه[73] من الرضاعة، وقيل إنها عندما خطبها الرسول ﷺ قالت: مرحباً برسول الله ﷺ، وأمرت ابنها أن يزوجها للرسول ﷺ، وقالت أم سلمة: عندما تزوجها النبي ﷺ قال لها: ليس بك على أهلك هوان إن شئت سبعت عندك وسبعت عندهن، وإن شئت ثلث عندك، وردت، قالت، قلت له: ثلث[74].

13 ـ خبر زواجه ﷺ بجويرية بنت الحارث:

يقول ابن إسحاق.. عن عائشة أنها قالت: لما قسم الرسول ـ سبايا بني المصطلق وقعت جويرية بنة الحارث في السهم لثابت بن قيس، أو لابن عم له. فكاتبته على نفسها، وكانت امرأة حلوة ملاحة لا يراها أحد إلا أخذت بنفسه، فأتت الرسول ﷺ تستعينه في كتابتها. قالت عائشة: فوالله ما هو إلا أن رأيتها فكرهتها، وقلت: سيرى منها مثل ما رأيت فلما دخلت عليه قالت: يا رسول الله أنا جويرية بنة الحارث سيد قومه، وقد أصابني من البلاء ما لم يخف عليك، وقد كاتبت على نفسي، فأعني على كتابتي فقال الرسول ﷺ «**أو خير من ذلك؟ أؤدي عنك كتابتك وأتزوجك**»؟ فقالت: «**نعم**». ففعل الرسول ﷺ فبلغ الناس أن الرسول ﷺ تزوجها، فقالوا: أصهار الرسولﷺ فأرسلوا ما كان في أيديهم من بني المصطلق. فلقد أعتق بها مائة أهل بيت من بني المصطلق فما أعلم امرأة أعظم بركة على أهل بيت منها[75].

وعندما رجعت إلى كتب السيرة، وجدت ابن هشام وتهذيب سيرته لعبد السلام هارون يقولان: فلما رجع الرسول ﷺ من غزوة بني المصطلق إلى المدينة، أقبل الحارث بن أبي ضرار بفداء ابنته جويرية، فلما كان بالعقيق، نظر في إبله التي جاء بها للفداء، فرغب في بعيرين منها، فغيبهما في شعب من

---

(73) إسعاف الراغبين في سيرة المصطفى وأهل بيته الطاهرين ص93.

(74) الهداية في تخريج أحاديث البداية، الطحاوي الحسين جـ6: 493، عالم الكتب.

(75) ابن إسحاق 245.

شعاب العقيق، ثم أتى النبي ﷺ فقال: يا محمد[76] أصبتم ابنتي وهذا فداؤها فقال الرسول ﷺ «**فأين البعيران اللذان غيبت بالعقيق في شعب كذا وكذا**» فقال الحارث أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله ﷺ، فوالله ما اطلع على ذلك إلا الله تعالى، فأسلم الحارث وأسلم معه ابنان له وناس من قومه، وأرسل إلى البعيرين فجاء بهما، فرفع الإبل إلى النبي ﷺ، ودُفِعت إليه ابنته جويرية، فأسلمت وحسن إسلامها، وخطبها الرسول ﷺ إلى أبيها، فزوجه إياها، وأصدقها أربعمائة درهم وتزوجها النبي ﷺ، وصارت أما للمؤمنين، وكان لهذه المصاهرة أن أسلم الكثير من بني المصطلق، ومن خلال ما سبق هناك فرق كبير بين رواية ابن إسحاق ورواية ابن هشام، ففي ابن هشام مثلاً نجد أن أباها هو الذي زوجها للرسول ﷺ، وأنه لم يجر عليها الرق، إذا افتداها أبوها بالإبل، وذكر الصداق الذي قدمه النبي ﷺ لها عند زواجه بها، أما رواية ابن إسحاق فهي تقول: إن الرق قد كتب عليها، وإنه دفع عنها ما كاتبته على نفسها وأيضاً ابن إسحاق[77] قد نسب إلى عائشة قولها: فوالله ما إِنْ رأيتها.. وقلت سيرى منها مثل ما رأيت... لأنها كانت حلوة...

وفي رأيي أن مثل هذه الكلام، لا يليق أن ينسب للسيدة عائشة أم المؤمنين، لمكانتها العالية، ورجاحة عقلها، وإيمانها، بأن تعدد زوجاته ﷺ، كان لأغراض وأهداف سامية رفيعة، بعيدة كل البعد عن الجمال والشباب، بل كانت زواجاته، كلها بأمر من الله سبحانه وتعالى، ولأهداف دينية، واجتماعية، وتشريعية، وسياسية، إذن تلك العبارة لا يليق أن تنسب لعائشة[78]، ولا أن ينسب ما تضمنته للنبي ﷺ، فلقد ترتب على زواجه ﷺ بجويرية بنت الحارث سيد بن المصطلق أن أُعتق قومها الذين وقعوا في الأسر، ودخلوا جميعاً في الإسلام، وأصبحوا من أنصار الإسلام، المدافعين عنه مع بقية المسلمين، وإنني

---

(76) سيرة ابن هشام جـ4: 215، تهذيب سيرة ابن هشام، عبد السلام هارون 379، السيرة النبوية والآثار المحمدية، أحمد زين جـ2: 109، عبقرية محمد، العقاد 110.

(77) ابن إسحاق، 245.

(78) خاتم النبيين، محمد أبو زهرة، جـ2، 976.

دائماً مع الأخبار التي تليق بمقام النبوة، ومقام أمهات المؤمنين، اللاتي اخترن الله ورسوله والدار الآخرة.

14 ـ خبر وفاة أبي طالب

من روايات يونس بن بكير في سيرة ابن إسحاق، وينسب الخبر لعلي بن أبي طالب، فيقول: عن علي بن أبي طالب، قال: لما مات أبو طالب، أتيت الرسول ﷺ فقلت: إن أبا طالب عمك الكافر قد مات فقال الرسول ﷺ: **«اذهب فوارِهِ»**. فقلت: والله لا أواريه، فقال: **«فمن يواريه إن لم توارِهِ»؟ فانطلق** فواراه[79].

إن العقل لا يصدق، أن يتكلم علي بن أبي طالب على والده بهذه العبارات، وهو الذي تأدب بأداب الإسلام، والله يقول في كتابه الحكيم ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾[80]، وإنني لم أترك الأمر، يمر دون بحث وتقص، فوجدت مثلاً في البخاري، أنّ أبا طالب لما حضرته الوفاة، دخل عليه الرسول ﷺ وعنده أبو جهل، فقال: أي عم: قل لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله، فقال أبو جهل، وعبد الله ابن أمية: يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب فلم يزالا يكلمانه حتى قال: آخر ما كلمهم به على ملة عبد المطلب. فقال النبي ﷺ: ـ لأستغفرن لك ما لم أُنْهَ عنك[81].

وأيضاً من خلال الحادثة التالية، نفهم العلاقة بين الرسول ﷺ، وعمه أبي طالب، وابنه علي بن أبي طالب، وذلك أن أبا طالب قال: أي ابن أخي إنني لا أستطيع أن أفارق دين آبائي، وما كانوا عليه، ولكن والله لا يخلص إليك بشيء تكرهه، ما بقيت، وقال لابنه عليّ أي بني ما هذا الدين الذي أنت عليه، قال: يا أبتي آمنت بالله ورسوله، وصدقته بما جاء به، وصليت معه لله، واتبعته، فقال لابنه: أما إنه لم يَدْعُك إلا إلى خير فالْزَمْه[82]...

---

(79) ابن إسحاق 223.

(80) سورة لقمان، الآية: 15.

(81) صحيح البخاري، جـ5: 65.

(82) سيرة خاتم النبيين، د. محمد عبد المنعم خفاجي 45.

وفي تهذيب سيرة[83] ابن هشام، قال الرسول ﷺ: قُلْها يا عمي، أي الشهادة، استحل لك بها الشفاعة يوم القيامة، فلما رأى أبو طالب حرص الرسول ﷺ على قولها، قال: والله لولا مخافة السبة عليك وعلى بني أبيك من بعدي، وأن تظن قريش أني إنما قلتها جزعاً من الموت لقلتها، لا أقولها إلا لأسرك بها.

وأيضاً قد سُمِع أبو طالب وهو يقول شعراً على فراش الموت جاء فيه:

ولقد علمت بأن دين محمد من خير أديان البرية ديناً.

ومثل هذا القول، جعل بعض الباحثين، يرى أن أبا طالب قد أسلم، ودخل في دين محمد ﷺ وإن لم يعلن ذلك[84]...

فإذن، الرسول ﷺ، قد حضر موت عمه وكان حريصاً على أن ينطق عمه بالشهادتين، فأين هذا مما ذُكِر في سيرة ابن إسحاق؟

والخلاصة: هذه بعض المآخذ على سيرة ابن إسحاق، ولقد أخذ بهذه الروايات مجموعة من المستشرقين، مثل الذين وجدوا فيه مرتعاً خصباً، لأفكارهم المشبوهة، وأقلامهم المسمومة، التي تعشق الاصطياد في الماء العكر، فأخذوا بهذه الترهات، وأضافوا عليها من عند أنفسهم المريضة، وربما تكون تلك المآخذ قد دُست على ابن إسحاق، ولهذا يجب على كل مسلم أن يكون حذراً من دسائس خصوم الإسلام وأعوانهم، وإن شر ما ابتُليت به شعوبنا الإسلامية المعاصرة، استسلامها لدعوى أنها شعوب متخلفة فكرياً وحضارياً واقتصادياً، وهذا بدوره يسلمها إلى رفع المستشرقين وأمثالهم إلى مصاف القداسة لأشخاصهم، ولما يبثونه في الجماعات البشرية من علومهم وأفكارهم مهما كانت.

فيجب على المسلمين ألا يتوقعوا من المستشرقين أن يتحدثوا عن ديننا، ونبينا مهما كانوا منصفين كما نتحدث نحن المسلمين، وأنهم ما زالوا بعيدين عن

---

(83) لعبد السلام هارون 108.

(84) موسوعة التاريخ الإسلامي، شلبي حـ1: 207.

كثير من الحقائق، وسيبقون كذلك ما داموا يعيشون في غير محيطنا، وينظرون بمنظار قد لا يظهر لهم حقائق التاريخ الإسلامي، وخاصة ما يتصل بالرسول ﷺ، ثم أنهم يعيشون في محيط مادي، يصعب عليهم فهم الحياة الروحية التي جاء بها الإسلام. أما أعوانهم من المسلمين، فهم الذين عليهم كل الاستنكار في السير على هديهم، وتسطير ما لا يليق بمقام الرسول ﷺ، والاعتماد على الروايات الضعيفة الواهية.

لهذا يجب على الباحث أن يكون على حذرٍ في كتاباته، ولا يأخذ أي رواية أو خبر، إلا بعد دراسة وتمحيص، وأرجو من الله التوفيق.